باراك اوباما يروي بداياته السياسية في (جرأة الأمل)

(٢)

ترجمة :ابتسام عبد الله

باراك اوباما

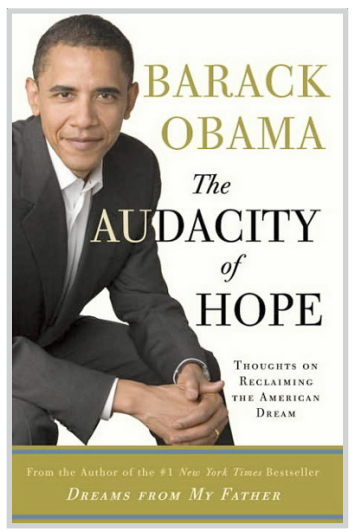

الفصل الاول*

جمهوريون وديمقراطيون

في اغلب الايام، ادخل مبنى الكابيتول عبر الطابق تحت الارض، قطار صغير يحملني من مبنى هارت حيث يقع مكتبي، عبر نفق تحت الارض مغطى باعلام وعلامات الولايات الخمسين.

عندما يتوقف القطار اشق طريقي في الزحام الى المصعد العتيق الذي يأخذني الى الطابق الثاني من المبنى، مع اول خطوة الى الخارج ألوح بيدي محيياً الصحفيين الذين يتجمعون عادة هناك، أقول "هلو" لشرطي المبنى، ثم أدخل الى طابق مجلس الشيوخ الامريكي.

قاعة الشيوخ ليست افضل مكان في الكابيتول ، ولكنها تفرض نفسها على الرغم من ذلك، وترتفع برفق مئة منضدة عن الارض في اربعة صفوف على هيئة حدوة حصان، بعضها تعود الى عام ١٨١٩ ، ولو فتحنا جارور أي منضدة لرأينا اسماء اعضاء مجلس الشيوخ الذين استخدموها في يوم ما، تافت ولونغ وستينز وكنيدي . اما بالحك او بيد العضو نفسه، احياناً عند وقوفي في القاعة ، استطيع تخيل بول دوغلاس او هيوبرت همفري عند احدى هذه المناضد، يحثون ضد تبني تشريعات الحقوق المدنية. ولكن تلك اللحظات نبهت بسرعة، وماعدا الدقائق القليلة التي تستغرقها عملية التصويت، فزملائي وأنا لانمضي وقتاً طويلاً في طابق الشيوخ، فكل القرارات المتعلقة بالاصلاحات قد تم التوصل اليها، خارج القاعة مسبقا من قبل الاغلبية.

أتذكر يوم الرابع من كانون الثاني عام ٢٠٠٥ الذي اقسمت فيه مع ثلث من المجلس اعضاء في الدورة الـ ١٩ للكونغرس . كيوم مضبب أزرق، كانت الشمس مشرقة والهواء دافئا بشكل غير اعتيادي، احتشد اصدقائي وافراد عائلتي قادمين من إلينوي، هاواي، لندن وكينيا، في قاعة الضيوف ، ليحيوا وهم يرونني مع زملائي نرفع الايدي لأداء القسم ، ثم وقفت في قاعة الشيوخ القديمة مع زوجتي ميشيل وابنتي لالتقاط صورة مع نائب الرئيس جيني، وبعد جولة قصيرة اتجهنا الى مكتبة الكونغرس لتحية عدة مئات من الاشخاص الذين جاءوا للتهنئة بعد ان قطعوا مسافات طويلة بالسفر، وقد انقضت الساعات التالية بسيل من الصفحات والعناق والتقاط الصور والتوقيع على (الاوتوغرافات).

وان كان كل شيء في واشنطن على ما يرام في ذلك النهار، واقفين معاً بثبات لتأكيد ديمقراطيتنا، فقد بقي شيء ساكناً من الهواء من حولنا، الوعي من ان هذا الامر لن يستمر وبعد انصراف العائلة والاصدقاء الى بيوتهم وغروب شمس الشتاء في الغيوم الرمادية ، بقي معلقاً فوق المدينة بشكل مؤكد حقيقة واحدة لاتتغير: لقد انقسمت البلاد ، وايضاً انقسمت واشنطن، انقسمت سياسياً اكثر من أي وقت مضى منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية.

ان انتخابات الرئاسة والشؤون الاخرى جرت بشكل حكيم ، عبر الصورة الضوئية للطيف فان امريكا تبدو غير متفقة: بشأن العراق، الضرائب ، التجارة ، الاجهاض ، الاسلحة ، الوصايا العشر، زواج الشذوذ ، الهجرة، السياسة التعليمية ، نظام البيئة ، حجم الحكومة، دور المحاكم ، نحن لم نتفق فحسب، ولكننا لم نتفق بشكل عنيف، لم نتفق في مجال خلافاتنا ، طبيعة خلافاتنا واسباب خلافاتنا، كل شيء كان في موضع خلاف سواء كان سبب تغيير المناخ او حقيقة تغيير المناخ ، حجم العجز في الميزانية، او المتهم الذي نلومه من اجل العجز.

بالنسبة لي لم يبد هذا الامر مفاجأة ، فمن بعيد كنت أرقب اتابع تصاعد المعارك السياسية في واشنطن بشدة، ايران . كونترا ، اولي نورث ، كلارنس توماس، وانتخاب كلينتون ، تحقيقات وايت ووتر وستار، تعليقها من قبل الحكومة والاتهام بالتقصير وبوش ضد غور، مع بقية الناس راقبت حملة إنبثاق الثقافة عبر الجسد السياسي، كصناعة تامة للاهانة وقد انبثقت للسيطرة على اسلاك التلفزيون، احاديث الراديو ، وقائمة نيويورك تايمز لافضل مبيعات الكتب.

ولمدة ثمانية اعوام في تشريعات إلينوي، اكتسبت شيئاً من الخبرة لمعرفة بكيفية الحركات المقبلة للعبة، وفي الوقت الذي وصلت فيه الى سبرينغفيلد عام ١٩٩٧، كانت الاغلبية الجمهورية للشيوخ قد تبنت القوانين نفسها التي كان سبيكر جينجرج يستخدمها للاحتفاظ بسيطرة كاملة على مجلس النواب الامريكي، الديمقراطيون يصرخون، يعارضون ، ثم يقفون بلا فائدة ، والجمهوريون يمررون التغييرات في الضريبة ويشقون الخدمات الاجتماعية ومع مرور الزمن تجمع الغضب انتشرت عبر المؤتمر الحزبي الديمقراطي وبدأ الزملاء يسجلون بدقة أي خطأ يصدر من قبل الحزب الجمهوري، بعد ستة اعوام ، سيطر الديمقراطيون ، ولم يصبح حال الجمهوريين افضل ، بعض المتمرسين القدامى، يتذكرون بحكمة الايام التي كان الديمقراطيون والجمهوريون يلتقون عند مائدة عشاء في الليل ويتبادلون الاحاديث، وحتى هذه الذكريات عند اولئك القدامى بدأت تبهت بسرعة ، عندما بدأ السياسيون من الطرف الآخر يتخذونهم أهدافاً لهم، او بارتكاب اعمال شائنة اخلاقياً..

في سنوات وجودي في سبرينغفيلد ، تمسكت بفكرة ان السياسة قد تختلف عن ذلك، وان الناخبين يريدون شيئاً مختلفاً، وانهم ضجروا من التحريف والتشويه والشتم وقذف الناس بالنعوت واتخاذ قرارات موجعة لمشاكل معقدة، وانني لو وصلت الى اولئك الناخبين مباشرة ، وشكلت القضايا كما أحسست بها، شرحت الخيارات بطريقة صادقة فان غريزة الناس واحاسيسهم الصادقة ستدفعهم للالتفاف نحوي، وان تحمّل عدد كاف منا تلك المهمة فاعتقد ان سياسيي البلاد لن يصلحوا وحدهم بل ان سياسة البلاد ستتغير نحو الافضل.

لقد احسست باستمرار بعلاقة غريبة تربطني بمرحلة الستينيات ، احس بشكل ما اني نتاج تلك المرحلة، كطفل لزواج مختلط كانت حياتي ستصبح متعذرة او صعبة، والفرص امامي مغلقة تماماً لولا تلك الفورات التي كانت تحصل آنذاك، ولكنني كنت صغيراً جداً في ذلك الزمن للادراك بعمق طبيعة التغييرات الحاصلة . مع الانتقال للعيش في هاواي واندونيسيا . لرؤية انحدار الروح الامريكية واكثر ما تشربت به من الستينيات كان قد تصغى عبر والدتي، والتي حتى نهاية حياتها ستعلن نفسها ليبرالية متمسكة بعناد بمبادئها، حركة الحقوق المدنية ، بشكل خاص ، أثارت تبجيلها ، حتما قدمت الفرصة نفسها ، فانها كانت تنقل لي قيما وفضائل رأتها هناك: المقاومة، المساواة ،الوقوف ضد العوائق.

وبجميع الوسائل، وعلى الرغم من ان فهم والدتي وادراكها للستينيات كانت محدودة لسببين ، البعد (كانت قد غادرت الوطن عام ١٩٠٠) وبسبب طبيعتها الرومانسية الطيبة التي يتعذر تغييرها عقلياً، كان بامكانها محاولة فهم القوة السوداء وحركات السود الاخرى، او لماذا تركت صديقاتها إزالة شعر سيقانهن، ولكن الغضب والروح المقاومة، لم تكن فيها. ليبراليتها ، عاطفياً تكونت قبل ١٩٦٧ ، وكانت افكارها بشأن برنامج الفضاء وحركات السلام وما هاليا جاكسون وجوان بايز.

في السبعينيات فقط، عندما اصبحت اكبر ، بدأت اقدر الى درجة ما ان اولئك الذين اختبروا بشكل اكثر مباشرة بعض احداث الستينيات فان الامور بدت بالنسبة اليهم تدور خارج السيطرة عليها، عرفت هذا جزئياً من تذمر جدي من جهة والدتي، اللذين كانا ديمقراطيين لمدة طويلة وصوتا لنيكسون عام ١٩٦٨ ، وهو امر اعتبرته والدتي خيانة لم تنسها، لقد جاء ادراكي للستينيات اساساً نتيجة للتقصيات التي اجريتها ، . الجسر الجوي الى سايفون والصخور في الثاماوات، وانا ان لم تكن لي اسباب عاجلة لمتابعة ثورة، فقد قررت اني بالاسلوب والموقف اكون ثائراً.

ونتيجة لرفضي السلطة دفعني الى الانغماس بالذات وهدمها ، سجلت في الكلية ، وبدأت اعيد النظر في افتراضاتي واستعدت قيم والدتي وجدي والتي تعلمتها منهم، في هذه العملية البطيئة المتلئة الواعدة تشكلت ما اعتقدت به اخذت بصمت اسجل النقاط في المناقشات التي تدور في مهجع الطلبة الداخلي، عندما بدأت وزملائي من الطلبة التوقف عن التفكير والاتجاه نحو وجهة جديدة: الدرجة التي كان فيها شجب الراسمالية او الامبريالية الامريكية كانت تثار بسهولة، والتحرر من قيود الزواج او الدين كان يعلن عنه من دون أي فهم تام للمعنى ، ودور الضحية كان يحتضن بسهولة كوسيلة للتخلي عن المسؤوليات او الادعاء بالتفوق الانساني على اولئك الذين لم يكونوا ضحايا بدرجة كبيرة. كل هذه الامور قد تفسر سبب انزعاجي ربما بانتخاب رونالد ريغان عام ١٩٨٠ ,

ان مهمة بناء او تكوين الاغلبية امر ليس بالسهل، ولا اقول ذلك في محاولة لخلق صورة مخادعة، ولكن ذلك هو الامل الذي يجب ان نقوم به، وبالتحديد اقول ان مهمة حل مشاكل امريكا سيكون امرا صعبا ، انه يتطلب خيارات صعبة ويتطلب التضحية ، وما لم ينفتح السياسيون على افكار جديدة وليست صفقة جديدة، فأننا لن نغير ما يكفي من القلوب والعقول للمبادرة ، بسياسة طاقة جادة او ترويض عجز الميزانية ، نحن لانمتلك التأييد الشعبي لوضع سياسة خارجية تتلاءم مع تحديات العولمة او الارهاب من دون الالتجاء الى الانعزالية أو تآكل الحريات المدنية.

انا لا اعتقد بعدم وجود حل لمشاكلنا. فهناك المواطنون الاعتياديون الذين كبروا في خضم كل هذه المعارك السياسية والثقافية، ولكنهم قد وجدوا في حياتهم في الاقل العيش بسلام مع جيرانهم و انفسهم، أتخيل الجنوبي الابيض ينمو وهو يسمع والده يتحدث عن الزنوج واولئك الزنوج، ولكنه مع ذلك يعقد صداقة مع الشباب الزنوج في مكتبه ويحاول تعليم طفله بشكل مختلف، وهو يعتقد ان التمييز العنصري امر خطأ ولكنه لايعرف السبب في وجوب قبول ابن الطبيب الاسود في القانون ، او في مسألة عضو سابق في "الفهود السود" الذي يريد شراء جملة من العقارات ولكنه يفشل في اقناع البنوك بمنحه قرضاً من اجل توسيع عمله، اضافة الى مشكلة المرأة في الاجهاض.

اعتقد ان هؤلاء ينتظرون من السياسي موازنة المثالية مع الواقعية للتمييز بين ماهو ممكن وماهو غير ممكن للتسوية، للاعتراف ان الجانب الآخر قد يكون له احياناً غاية ما.

انهم لايفهمون باستمرار الخلافات بين اليمين واليسار ، بين المحافظين والليبراليين ولكنهم يعرفون الصعوبات بين العقيدة والبديهية السليمة، المسؤولية واللامسؤولية بين تلك الاشياء التي تدوم وتلك التي تتلاشى.

انهم هناك في الخارج ينتظرون الجمهوريين و الديمقراطيين للحاق بهم.

الديكتاتوريون يعودون مرة أخرى

المعركة فكم كانوا مخطئين في مرة أخرى والشعوب في الآن للانتقام واكثر من هذا الاتحاد السوفيتي هو العالم الا وهي روسيا والصين ذلك كما يقول المحافظ الجديد و مستشار السياسة الخارجية لجون ماكين حيث يحذر من ان قوى التحرر تخسر ارضيتها مثلما تعيد النظم الاوتوقراطية الاستبدادية في روسيا والصين بناء نفسها كقوى عالمية.

حينما اعادت تلك النظم صعودها مجددا في السنوات الأخيرة متزامنا مع شن الاسلامية الراديكالية حربها انقسم العالم الليبرالي وتهشم بشؤون معقدة وتافهة.

فقد تناحرت الدول الديمقراطية فيما بينها بشأن الارضية الأخلاقية لمناقشة النقاط الجيدة في القانون الدولي لإثبات جدارتها بخصوص القوة السياسية والعسكرية و انتقدت في مناقشات لاتنتهي فشل المعايير الاخلاقية والمعنوية عند بعضها تلك الجدالات التي تقدم صورة مرفهة في عصر الانسجام العالمي وليست تصلح بالطبع في الفترة التي دخل فيها العالم بمشاكل حقيقية فقد عاد التاريخ ليكرر نفسه العالم المتحرر تحتاج الى تشكيلة او تدع الآخرين يشكلونه لهم من جديد.

لقد كان التفاؤل مفهوما في بداية التسعينيات فعلى مستوى الاقتصاد العالمي كان هناك ايمان واسع وتصور انه ليس هناك خيار غير التحرر يبدأ اقتصاديا اولا ثم سياسيا ثانيا اذا كانوا يريدون النجاة والتنافس وكان مواطنو بلدانهم يبحثون عن الرخاء والراحة وقد تنازلوا عن العواطف المتوارثة والكفاح من اجل الشرف والمجد والضغائن القبلية التي طالما قادت الى الصراع خلال الحقب التاريخية وفي صراع الافكار كان الانتصار لصالح الليبرالية كما وضعها فرانسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ حينما قال " لم يتبق منافس ايديولوجي حقيقي للديمقراطية الليبرالية " .

لم يشهد العالم هذه التحولات على اية حال ويبدو انها قد توقفت بسبب التنافس اللانهائي بين الامم والشعوب والوطنية بعيدة عن تاثير العولمة حيث انها تعود فان وجود الثروات الوطنية والأ نظمة الاستبدادية يثبت هذا السياق بعد كل الذي جرى .

لقد تعلمت النظم الاستبدادية كيف تصلح من شانها في الصين وروسيا عن طريق السماح بالاصلاحات الاقتصادية بينما تقمع في ذات الوقت النشاطات السياسية فهم يرون ان الناس اذا استطاعت الحصول على المال فانها سوف تبقي انوفها بعيدة عن السياسة خصوصا اذا عرفوا ان هذه الانوف سوف تجدع اذا ما تدخلت في هذه الشؤون .

ان اغلب الروس يبدون راغبين في الحكم الاوتوقراطي على عكس الانقلاب الديمقراطي الذي حصل في التسعينيات من القرن الماضي فالحكومة الحالية استطاعت على الاقل ان ترفع من المستوى المعيشي والرئيس بوتين يحاول جاهدا عدم العودة الى الاذلال الذي حصل بعد الحرب الباردة عن طريق الاستقرار وتجديد عظمة روسيا حيث يؤمن مستشاروه السياسيون ان الانتقام الذي ادى الى زوال سيبقيهم في السلطة .

لقد تعلمت الصين من التجربة السوفيتية ايضا فبينما كان العالم الليبرالي ينتظر من الصين ان تستأنف تحولها الحتمي الى الديمقراطية الحديثة لكن الحزب الشيوعي الصيني كون ما يشبه تقوية هيمنته على السلطة ويرى الملاحظون للنظام السياسي الصيني ان هناك مايكفي من المشاكل تتمثل بعدم الكفاءة والقسوة في جزء من القيادة الصينية في الامساك بالمشاكل كما لو انهم ينهضون وفي نفس الوقت يهيئون الجماهير لقبول حكومة اوتوقراطية طالما ان الاقتصاد لديهم مستمر بالنمو وعلى المدى البعيد فان زيادة الازدهار ربما سينتج الليبرالية السياسية ولكن كم سيطول هذا المدى البعيد ؟ ربما سيكون من البعيد جدا ان تكون هناك اي استراتيجية او جغرافية سياسية على صلة بهذا الموضوع .

ان العالم ينتظر التغيير لكن هذا التغيير سيكون في اثناء ذلك في اكبر امتين من امم

ان هذا سوف يغير شكل النظام العالمي بشكل عميق . ان العام ليس بصدد ان يتنازل عن الصراع الايديولوجي الذي حصل ايام الحرب الباردة لكن العصر الجديد سيكون واحدا من العصور التي سينمو فيها التوتر وربما المواجهة في بعض الاحيان بين النظم الديمقراطية و الاتوقراطية اكثر مما يتبنى قيما كونية مشتركة.

ان الافتراض الذي حصل خلال العقود الاخيرة هو ان روسيا والصين قد توقفا عن الايمان بالشيوعية لكنهما في ذات الوقت قد توقفا ايضا عن الايمان باي شيء فقد اصبحا برغماتيين بلا ايديولوجية او ايمان وانما فقط من اجل نفسيهما وامتيهما. ان الحكم في روسيا والصين هو كالحكم الاوتوقراطي في الماضي فقط وضعا مجموعة من المعايير وهذه المعايير هي التي تقودهم على المستوى الداخلي وعلى مستوى السياسة الخارجية.

اسم الكتاب :- عودة التاريخ ونهاية الحلم

المؤلف :- روبرت كيغان

ترجمة :عمار كاظم محمد

بانهيار الشيوعية وصعود العولمة في التسعينيات من القرن الماضي آمن الغرب الديمقراطي انه قد ربح